مستعربو الأندلس: التسمية والظهور.

أ. محي الدين صفي الدين،
قسم العلوم الإنسانية، جامعة معسكر.

عندما فتح المسلمون الأندلس سنة 92هـ 711م، وجدوا غالبية سكانها يدينون بالديانة المسيحية، وإلى جانبهم أقلية يهودية، والكل يتكلم اللغة الرومانثية، وهي الإسبانية القديمة المتفرعة عن اللاتينية، والتي عرفت عند الكتاب المسلمين الأندلسيين بالعجمية أو اللاطينية (مريم ق ط، 1994م، 249)، ومنها تطورت اللغة الإسبانية المتداولة حاليا في إسبانيا ودول أمريكا اللاتينية وبعض دول العالم الأخرى. إلا أن هؤلاء السكان تعربوا أو استعربوا نتيجة احتكاكهم بالفاتحين المسلمين، فحاكوهم لسانا وزيا واعتنق بعضهم الإسلام، بينما بقي البعض الآخر على مسيحيته مكونا بذلك طائفة ضمن المجتمع الأندلسي، مسيحية الدين والعقيدة، عربية اللسان والمظهر، وهذه الطائفة هي التي عرفت فيما بعد "بالمستعربين"، "Los Moz↔rabes" باللغة الإسبانية.

وسنبحث من خلال هذا العمل ظروف ظهور مصطلح المستعربين كنعت لنصارى الأندلس الذين تعربوا، والدوافع التي أدت إلى ظهوره، كما سنتعرض بالبحث إلى تاريخ تحولهم إلى استعمال اللغة العربية بدل اللغة اللاتينية، وبخاصة داخل دور عبادتهم من كنائس وأديرة.

❖ تحديد مصطلح المستعربين:

أطلق الكتاب المسلمون في العصر الوسيط، على الطائفة السابق ذكرها، نعوتا منها "العجم"، أي الذين لا ينحدرون من أصل غير عربي، إلا أن هذه التسمية كانت تشمل، بالإضافة إلى مسيحي الأندلس، اليهود ونصارى الشمال، ثم أصبح هذا اللفظ رديفا لهؤلاء (ابن حيان، 1965، 64).

كما أطلقت عليهم نعوتا أخرى منها "النصارى"، إلا أن هذا اللفظ، وإن كان يميزهم عن اليهود فإنه يخلط بينهم وبين نصارى دار الحرب، لذلك سموهم بأسماء مركبة منها "أهل الذمة من العجم" (ابن القوطية 1402هـ/ 1982م، 32) ، وفي هذه التسمية أيضا يشترك معهم اليهود. بينما يرى ليفي بروفنسال أن لفظ الذمة اختص به اليهود دون المسيحيين الذين خصوا بلفظ المعاهدين (Provençal. E. L, 1999, 1/77)، وهذا ما لم نجد له أصلا في المصادر والمراجع التي تصفحناها، بل وجدنا خلاف ما ذهب إليه هذا المؤرخ، من أن مصطلح الذمة كان رديفا للنصارى المعاهِدين [مجهول، 1399هـ/ 1979م، 90 و92 و97)، وسُمِّي هؤلاء بذلك لأنهم عاهدوا المسلمين على الطاعة ودفع الجزية والخراج وعدم حمل السلاح في وجوههم أو التآمر ضدهم (مؤنس ح، 1405هـ/ 1985م، 114- 115).

ولمزيد من الدقة في تمييز مسيحيي الأندلس عن غيرهم، نعتهم المسلمون بنعوت مركبة مثل "المعاهدون من النصارى"(ابن الخطيب ل، 1956م، 15 و18)، و"نصارى الذمة" (ابن حيان، 1979، 51) تمييزا لهم عن اليهود، كما كانوا ينسبونهم أحيانا إلى المدينة التي يقطنونها (ابن حيان، المقتبس، 1965، 64).

أما الألفاظ الأخرى مثل "الروم" (ابن عذاري م، 1400هـ/ 1980م، 2/ 218)، و"الكفرة"(ابن عذاري م، 1400هـ/ 1980، 2/ 187)، و"المشركين" (ابن عذاري م، 1400هـ/ 1980، 2/ 208)، فكانوا يقصدون بها نصارى الشمال، وأحيانا أخرى نصارى الأندلس الذين يثورون على السلطة الإسلامية.

واللفظ الذي اشتُهر به هؤلاء في كتب التاريخ والوثائق المسيحية للقرون الوسطى، وبخاصة بعد سقوط طليطلة في يد مسيحيي الشمال سنة 478هـ/ 1085م في إطار ما سمي بحرب الاسترداد، هو "المستعرَبون".

بينما أطلقت هذه التسمية في الشرق الإسلامي، على مجموعات بشرية تعربت بسبب اختلاطها بالعرب الخُلّص، ويؤكد ذلك العلامة أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي اللغوي النحوي الشافعي المعروف بالأزهري 202- 270هـ 817- 883م) ، صاحب كتاب "تهذيب اللغة" إذ يقول: "المستعربة عندي، قوم من العجم دخلوا في العرب فتكلموا بلسانهم وحكوا هيئاتهم، وليسوا بصرحاء فيهم" (ابن منظور ، مادة عرب، د.ت، 1/ 588)؛ يتبين من كلامه إذًا أن الاستعراب يكون باللسان والهيئة معا.

وأولى المجموعات البشرية التي أطلق عليها هذا الاسم هي القبائل العربية التي تنحدر من إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والتي تعرف بالعدنانية نسبة إلى عدنان بن أدد بن دريد، أحد أحفاد إسماعيل عليه السلام، وتعرف أيضا بالمعدية نسبة إلى معد بن عدنان بن أدد، وبالنزارية نسبة إلى نزار بن معد بن عدنان بن أدد، ذلك لأن إسماعيل عليه السلام تعرب أو استعرب بعد اختلاطه بقبيلة جرهم العربية، والتي تزوج منها بالسيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، التي أنجبت له اثني عشر ابنا ذكرا، كونوا فيما بعد، العرب المستعربة (ابن الأثير ش، 1415هـ/ 1995م، 1/ 95).

وكان أول من استعمل لفظ المستعربة سليمان أيوب بن يزيد بن قيس المعروف بابن القرية، وهو أحد خطباء العرب المشهورين بالفصاحة، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي سنة 84هـ/ 704م (ابن خلكان ش، 1968م، 1/ 250- 255) حين سأله هذا الأخير عن أهل البحرين فقال: "نبط استعربوا"، ثم سأله عن أهل عمان فقال: "عرب استنبطوا" (ابن منظور، مادة نبط، دت، 7/ 410)، ثم استعملها المؤرخون المسلمون المشارقة أمثال الطبري وابن الأثير وابن كثير والبلاذري وغيرهم للإشارة إلى القبائل العربية مثل لخم وجذام وبهراء وبلي وعاملة، والتي كانت مستقرة بالشام أيام

الفتوحات الإسلامية، وتعاونت مع الجيوش البيزنطية ضد المسلمين في معركتي مؤتة والقادسية (الطبري ج، 1407هـ/ 1989م، 2/ 427)، على سبيل المثال، بينما لم نجد أثرا لهذا اللفظ في مصادر الغرب الإسلامي التي تصفحناها، سواء المتقدمة منها أو المتأخرة، أي أن كتّاب الغرب الإسلامي، وبخاصة الأندلسيين منهم، لم يستعملوها كإشارة إلى مسيحيي الأندلس أو إلى غيرهم، ويعود ذلك، حسب اعتقادنا، إلى أن لفظ المستعربين يشمل، إلى جانب النصارى، الأسالمة واليهود والبربر، لأن كل هؤلاء تعربوا بعد الفتح الإسلامي للمغرب والأندلس.

من ذلك يتبين إذا أن لفظ المستعربين لم يستعمل من طرف المسلمين، إنما أطلق على نصارى الأندلس من طرف مسيحيي الشمال، بعد افتكاكهم طليطلة من أيدي المسلمين سنة 478هـ 1085م، وهذا ما يكاد يجمع عليه أغلب المؤرخين المحدثين، مثل ميكيل دي إيبالزا ومحمد عثمان جاد الرب وسيموني(دي إيبالزا م، 1999، 234 وجاد الرب ع، 1424هـ/ 2003م ،250، و (Simonet F. J, 1967, IX)

ورغم ذلك لاحظنا اختلافا في الآراء حول سبب ظهور هذه التسمية. فحسين مؤنس يرجح أن هذه التسمية ظهرت في الأندلس قبل القرن الخامس الهجري (11م)، وتداولتها الألسن قبل أن تستعمل من طرف الكتاب النصارى الذين ألِّفوا بالعربية في الكلام عن أنفسهم وإخوانهم، ثم انتقلت حسب رأيه دائما، عن طريقهم إلى الكتاب النصارى الذين يكتبون باللغة اللاتينية في بلاد الإسلام، وبعدها انتقلت إلى الشمال المسيحي لتستعمل في المدونات والوثائق (مؤنس ح، 1405هـ/ 1985م، 425).

لو أخذنا برأي حسين مؤنس، فهذا يعني أن التسمية محل الدراسة ظهرت في الأندلس ثم انتقلت إلى المناطق الشمالية غير الخاضعة لسلطة المسلمين، وهذا مخالف لما أجمع عليه غالبية المؤرخين، وبخاصة الذين عنوا بدراسة هذه الطائفة أمثال فرانسيسكو خافيير سيمونيت (Francisco Javier Simonet)، وإيسيدرو دي لاس كاخيغاس (Isidro) Cagigas de las، فلو فرضنا أن نصارى الأندلس اتخذوا هذه التسمية لأنفسهم، فلابد أن يكون الهدف منه تميُّزهم عن نصارى آخرين غير مستعربين كانوا يعيشون معهم في نفس المجتمع، وهذا ما لم نجد له أثرا في المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها.

ثم يعود مؤنس إلى القول، بأن هذه التسمية قد شُرع في استعمالها عندما استولى نصارى الشمال على مناطق فيها نصارى مستعربون، وذلك في نهاية القرن 5هـ 11م، وأنها كانت دارجة على ألسن نصارى الأندلس قبل انتقالها إلى الشمال المسيحي بعد سقوط مدن أندلسية في أيدي نصارى دار الحرب، في إطار ما سمي بحركة الاسترداد (مؤنس ح، 1405هـ/ 1985م، 425)، إلا أنه لم يقدم أدلة على شيوع هذه التسمية في الأندلس قبل القرن 5هـ 11م، ويرى أنه من الخطأ تسمية مسيحيي الأندلس

بالمستعربين قبل هذا التاريخ، لأن هذا اللفظ كان غير معروف وغير متداول (مؤنس ح، 1405هـ/ 1985م، 427).

إذا مما سبق، يتضح أنه من الخطأ إطلاق هذه التسمية على نصارى الأندلس قبل نهاية القرر 2هـ 8م، لأن الكنيسة لم تكن قد تعربت بعد بشكل فعلي ورسمي، ولكن بعد ذلك أصبح بالإمكان تسميتهم بهذا الاسم، غير أن المانع الذي حال دون استعمال هذا اللفظ، هو عدم وجود جماعات مسيحية غير مستعربة في الأندلس، أي لم تظهر حاجة لاستعماله قبل القرن 5هـ 11م، فهذا اللفظ ارتبط عند سيموني وأمثاله بالجماعات المسيحية في الأندلس، أما حسين مؤنس فركز في دراسته على التسمية دون المسمى.

ويشير بروفنسال إلى أن المسيحيين الأندلسيين الذين كانوا يهاجرون إلى المناطق الشمالية، كانوا يسمَّون هناك "ماولاتوس" "maullatus" ويستطرد قائلا أن هذه الكلمة لاتينية مستوحاة من الكلمة العربية (موالي) (Provençal. E. L, 1999, 3/ 213)، دون تحديد ما إذا كان هؤلاء فعلا موالي، والجهة التي يعلنون ولاءهم لها، والفترة الزمنية التي استعمل فيها هذا اللفظ.

وإذا فالرأي الراجح في نظرنا، هو ما ذهب إليه أغلب المؤرخين من أن تسمية مسيحيى الأندلس بالمستعربين، ظهرت بعد افتكاك ألفونسو السادس Alfonso VI 459- 503هـ 1065- 1109م) لطليطلة سنة 478هـ 1085م من أيدي المسلمين، وعثر فيها على عدد كبير من النصارى الذين كانوا يعيشون في ظل السلطة الإسلامية، ويتكلمون اللغة العربية، ويؤدون طقوسهم الدينية بها، ولهم عاداتهم الاجتماعية الخاصة بهم، والتي تميزهم عن بقية النصارى، لذلك كان لزاما إيجاد لفظ أو صفة تميز هذه المجموعة، وبما أن الميزة الأساسية لهم هي الاستعراب أو التعرب، فأصبح أفرادها ينعتون بالمستعربين، أما نصارى الشمال فكانوا ينسبون إلى الجهة التي قدموا منها، كأن يقال قشتاليون castellanos، أو أراغونيون aragones، أو فرنجة francos (مؤنس ح، 1405هـ/ 1985م، 425).

وذهب بعض المؤرخين مثل ديفورك إلى أن هذا اللفظ (mozárabes)، هو تحوير للكلمة العربية "مستعرَب" musta'rab، بفتح الراء، وليس musta'rib بكسرها (Duffourcq Ch. E, 1978, 119)، وقد ورد مكتوبا بعدة أشكال في الوثائق القشتالية، ففي الامتياز الذي منحه ألفونسو السادس لهذه الطائفة سنة 496هـ/1101م، رسم اللفظ بالشكل التالي (musta'rabes) (Simonet F. J, 1967, IX) ، وعرف هذا الامتياز الأول "بميثاق المستعربين"، أما في الامتياز الثاني الذي منحه ألفونسو السابع Alfonso VII (522- 552هـ/1126- 1157م)، لنفس المجموعة سنة 512هـ/1118م، فقد جاء مكتوبا كالتالي "muzarabes" (Simonet F. J, 1967,

X)، وكتب أيضا "muzarabos" في الخطاب الذي وجهه البابا يوجين الثالث le pape Eugène III (540- 548هـ/ 1145- 1153م) إلى أهل طليطلة سنة 541هـ/1146م (Simonet F. J, 1967, XI))، ورُسم "mistarabes" في كتاب لأحد أساقفة طليطلة (Simonet F. J , 1967, XI)، ونجد اللفظ أحيانا بـ "al" التعريفية مثل "al mozarabes" (Simonet F. J, 1967, X)، ويورده الشاعر الإسباني غنثالوا دي بيرثيو Gonzalo de Bercio في بداية القرن 7هـ/13م كما يلي "mozarabia" (Simonet F. J, 1967, X)، أما الشاعر الإنجليزي أردريكو فيتالArderico Vital فسماهم في بداية القرن 6هـ/12م "muceravios" (Simonet F. J, 1967, X)، وفي وثيقة ألفونسو المحارب Alfonso el Batador (498- 530هـ/1104/1134م)، المؤرخة سنة 520هـ/1126م وجد اللفظ مكتوبا بالشكل التالي "mozarabis". (Simonet F. J, 1967, X).

يُلاحظ مما سبق، أن لفظ المستعربين، وإن اختلف في رسمه ونطقه، فإنه يشترك في كون حرف الراء فيه مفتوحا، مما يدل على أنه اسم مفعول مبني للمجهول، ولم يرسم براء مكسورة على أنه اسم فاعل، ربما يكون ذلك إيحاء من المستعربين، الذين اختاروا هذا اللفظ لأنفسهم، بأن الاستعراب فُرض عليهم، وأن اندماجهم في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس لم يكن بمحض إرادتهم، وهذا ليدفعوا عن أنفسهم تهمة التواطؤ مع السلطات الإسلامية في الأندلس والخضوع لها (Molenat. J. P,1995 , 279)، ولتبرير تخليهم عن لغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم اللاتينية واستبدالها بأخرى عربية.(مارغريتا. ل. غ 1999 1 213).

ويختلف المؤرخون حول سبب إطلاق هذه التسمية على نصارى الأندلس، إذ يذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأن لفظ المستعربين يحمل دلالة تحقيرية (دي إيبالزا م، 1999، 213)، وأنه لقب ازدراء أطلق عليهم بتهمة تعايشهم مع المسلمين لعدة قرون(Molenat J. P, ,1995, 279)، بينما يرى مؤرخون آخرون أمثال عبد القادر جاد الرب ومولينا Molenat، أن نصارى الأندلس هم الذين طالبوا بأن يُنعتوا بالمستعربين، حتى يكون هذا الاسم هوية لهم يتميزون بها عن بقية النصارى، ولم يعتبره انتقاصا من شأنهم أو حطا من سمعتهم أو تعييرا لهم، وهذا ما نعتقده، نظرا للامتيازات التي حصلوا عليها، والتي ذكرناها سابقا، بل أنهم كانوا يتشرفون بكونهم مستعربين وبتحكمهم في اللغة العربية، لأن هذه الأخيرة كانت لغة عالمية (جاد الرب ع، 1424هـ/ 2003م، 235)، وكذلك (Molenat J. P ,1995, 280)، ولغة العلوم والفنون آنذاك (بن عبد الله ع، 1377هـ/ 1957م، 257) كما كانوا يحسون أنهم أكثر تحضرا من نصارى الشمال الذين كانوا أكثر خشونة وأقل تحضرا، ومعرفتهم بالعربية أقل (بن عبد الله ع، 1377هـ/ 1957م، 259)، يضاف إلى ذلك الدور الهام الذي كانوا يقومون به، والمتمثل في نقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا المسيحية

عن طريق الترجمة، وهذا ما جعل مسيحيي الشمال يكنون لهم كل الاحترام والتقدير (مكي م ع 1995م 11).

!) ظهور طائفة المستعربين:

لم تتناول المصادر والمراجع تاريخ استعراب مسيحيي الأندلس بشكل صريح ودقيق، ولذا حاولنا الاستفادة ما أمكن من الإشارات الواردة في هذه المصادر قصد الوصول إلى تاريخ تقريبي لتحولهم من استعمال اللاتينية إلى العربية كلغة تخاطب.

مما لاشك فيه، أنه لم يكن هناك أي احتكاك بين العرب المسلمين وسكان شبه جزيرة إيبيريا قبل الفتح الإسلامي، أي أنه لم يكن للعربية أي وجود في هذا الجزء من العالم، ولكن بعد عبور المسلمين إلى هذه المنطقة، وسيطرتهم عليها ابتداء من سنة 92هـ/711م، أصبح لامناص من التأثير والتأثر بين المجموعتين.

لقد كان هدف المسلمين منذ فتح شبه جزيرة إيبيريا، هو نشر الإسلام أولا وقبل كل شيء، ولكن لبلوغ هذا الهدف وتمكين الدين الإسلامي في نفوس الأهالى، الذين قدر عددهم آنذاك بحوالي ستة ملايين نسمة (مارغريتا ل غ 1999 : 1 213)، كان على الفاتحين إذا نشر اللغة العربية التي تعتبر مفتاح هذا الدين.

وبعد إحكام المسلمين سيطرتهم العسكرية والسياسية على الأندلس، سعوا إلى تنظيمها اقتصاديا، فكان أول عمل قاموا به في هذا الإطار خلال عهد الولاة، هو سك مجموعة من النقود، والتي يمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات:

- المجموعة الأولى من النقود ضربت في الفترة ما بين 92 و96هـ/711 و715م، وهي نقود لاتينية لا تحمل كتابات إسلامية (Guillou A, 1955, fasc 1, 60 .)، مما يدفعنا إلى القول أن اللغة العربية لم تكن قد انتشرت بعدُ في أوساط الأهالي خلال هذه الفترة، أو أن انتشارها كان محدودا جدا، واقتصر على عدد قليل من النصارى، مثل زوجات بعض الفاتحين من النصرانيات، كزوجة الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير، المسماة إيخلونا Egilona أو أم عاصم، وزوجة زياد بن نابغة التميمي (ابن عذاري م، 1400هـ/ 1980، 2 23) وغيرهما، ولذلك لا يمكن خلال هذه الفترة، أن نتحدث عن وجود طائفة المستعربين.

- المجموعة الثانية من النقود تضمنت نصوصا لاتينية، إسلامية الطابع (Guillou A, 1955, fasc 1, 60.) ، مثل"non deus nisi deus solus" أي لا إله إلا الله الواحد، وأيضا "non deus similis alius" أي ليس كمثله شيء، (Duffourcq Ch. E, 1978, 58) وقد تم إصدار هذه المجموعة في الفترة ما بين سنتي 96 و98هـ/715-717م.

إن هذه المجموعة من النقود، إضافة إلى اعتبارها مظهرا من مظاهر تحكم المسلمين في اقتصاد الأندلس وتنظيمهم له، قد شكلت وسيلة من وسائل الدعوة إلى

الدين الإسلامي القائم على التوحيد، كما أنها تدل على عدم الانتشار الواسع للعربية خلال هذه المدة.

- المجموعة الثالثة تضمنت كتابات بالعربية وأخرى باللاتينية، وكان الشروع في سكها سنة 99هـ/717م (Guillou A, 1955, fasc 1, 60.) ، حيث يمكن اعتبار هذه السنة، بداية لانتشار اللغة للعربية في أوساط الأهالي.

- المجموعة الرابعة من القطع النقدية، شرع في سكها سنة 106هـ/724م، حملت كتابات عربية فقط، وهذا ما يمكن اعتباره دليلا على استعراب نسبة كبيرة من سكان الأندلس، سواء الذين أسلموا منهم أو الذين بقوا على ديانتهم المسيحية، وبخاصة سكان الحواضر مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها .

مما سبق، يتضح أن اللغة العربية كانت، خلال عقد ونيف من الزمان، بعد الفتح الإسلامي للأندلس، قد تغلغلت في أوساط الأهالي، وبخاصة سكان الحواضر منهم، الذين أتقنوها وأصبحوا يضاهون العرب في ذلك، ولا أدل على ما نقول من العهد الذي كتبه مهدي بن مسلمة، بتولية نفسه قاضيا على الأندلس، بأمر من واليها آنذاك، عقبة بن الحجاج السلولي (116- 123هـ/734- 747م)، مع العلم أن مهديا هذا كان من أبناء الأسالمة، أي من أبناء الإسبان الذين أسلموا، ورغم ذلك كتب عهدا ظل أصلا من أصول القضاة لعهود طويلة في الأندلس، (الخشني م، 1981، 21)، وهذا ما يسمح لنا بالقول أن استعراب الأهالي في الأندلس بلغ شوطا كبيرا خلال الثلاثين سنة الأولى بعد الفتح.

ويمكن إرجاع إقبال هؤلاء الأهالي على اللغة العربية خلال السنوات الأولى من الفتح الإسلامي إلى عدة أسباب، نذكر منها:

1- تفوق المسلمين عسكريا وسيطرتهم على الأندلس وإخضاعهم لها، مما حدا بسكانها المغلوبين إلى تقليد المسلمين في لغتهم وملبسهم وعاداتهم وتقاليدهم، لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب، وأن النفس تعتقد الكمال في من غلبها (ابن خلدون ع، 1413هـ/1992م، 1/ 155).

2- انبهار الإسبان باللغة العربية، واكتشافهم ثراءها وسلاستها ونصاعتها، وفي المقابل قصور اللغة اللاتينية وصعوبتها، فاحتقروها وصاروا يتكلمون ويكتبون لغة الفاتحين، وهذا ما أشار إليه ألبارو القرطبي Alvaro de Cordoba، خلال القرن الثالث الهجري(9م)، في ندائه الذي وجهه إلى الشباب المسيحي قائلا: "...إن الشباب المسيحي لا يجد المتعة إلا في قراءة الكتب العربية وآدابها، وينفقون الأموال الطائلة على شراء الكتب وتشكيل مكتبات ضخمة... إن المسيحيين منا قد نسوا لغتهم..."(القاضي م، 1422هـ/ 2001م، 94).

3- إقبال النصارى واليهود، على حد سواء على تعلم اللغة العربية، طمعا منهم في الوصول إلى وظائف عليا في الدولة أو إلى ديوان من دواوينها (بن شريفة م، 1413هـ/ 1993، 65)، وقد تمكن عدد منهم من تحقيق هذه الرغبة، إلا أنه من الخطأ تعميم ذلك على كافة مسيحيي ويهود الأندلس.

4- المعاملة الحسنة التي عامل بها الفاتحون المسلمون، أهالي الأندلس من تسامح ديني واحترام للمعاهدات والممتلكات الفردية والدينية، إضافة إلى سماحة الإسلام، كلها حوافز دفعت هؤلاء إلى تعلم العربية.

5- اختلاط المسلمين منذ دخولهم الأندلس بأهلها، إذ اتخذ بعضهم من المسيحيات زوجات لهم، كما أن توزيع الجند الإسلامي على مدن الأندلس وإقامتهم وسط الأهالي، سهل إلى حد كبير استعراب هؤلاء، (المقري ت، 1997، 1 /237).

لهذه الأسباب كلها انتشرت اللغة العربية في أوساط الأهالي، وأصبحت الأندلس كلها عربية في ظرف زمني لا يزيد عن قرن من دخول الإسلام إليها، حتى أن هاشم بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن ثم حاجب الأمير منذر بن محمد (ابن الأبار ق، 1985، 1 /36)، لم يجد من النصارى المقيمين بمدينة ماردة من يقرأ له لوحا من الرخام وجده في أحد أسوار المدينة، كتبت عليه عبارة باللغة اللاتينية (الحميري م، 1980، 519).

اضطر المشرفون على الكنيسة إلى استعمال لغة الفاتحين بدل اللاتينية في أداء طقوسهم الدينية، وترجموا الأناجيل والوثائق الكنسية إليها، وأقبل مسيحيو الأندلس، وبخاصة النبلاء منهم على دراسة كتب الشعر والعلوم العربية، وشغفوا بالفن الأدبي العربي، (Duffourcq Ch. E, 1978, 141)، وأصبحوا ينظمون أشعارا بالعربية تنم على رقي مستواهم اللغوي وإجادتهم للعربية.

وكأمثلة على هذه الأشعار، الأبيات التي نظمها أحد القساوسة، ويدعى بسنتي Vicente خلال القرن 3هـ/9م، ذيل بها قوانين وقرارات كنسية مترجمة من اللاتينية إلى العربية، وأهداها إلى أسقف مستعرَب يدعى عبد الملك، ومن بين ما جاء فيها:

كِتابٌ لِعبدِ المِلكِ الأُسقُفِ النَّدْبِ جَوادٍ نَبيلِ الرَّفْدِ في الزَّمنِ الجَدْبِ
هُمامٍ ذَكيِّ الحسِّ واحدِ عصْرِهِ عليمٍ كريمٍ ذي علُومٍ وذِي لُبِّ
تَجدَّدَ فضْلُ اللّهِ فينا بفَضلِهِ وعَمَّ بـه الأنَامَ هَدْيُ الـرّبِّ
فَلا زالَ في عِزٍّ من اللّهِ شَامِلٍ متى انْهَلَّ مُزْنٌ في قُرَى الرَّبّ بِالسَّكْبِ (بن شريفة م، 1413هـ/ 1993، 66).

كما نظم المستعرب حفص بن ألبر، قاضي العجم على عهد عبد الرحمن الناصر (300- 350هـ/912- 961م)، أرجوزة هي عبارة عن ترجمة لزبور النبي داود

بن سليمان عليهما السلام، وتقع في خمسة آلاف وخمسمائة بيت أو شطر، من بين ما جاء فيها:

سَهَّلْتُ في الوَزْنِ وفي القَوَافِي كَرَاهَةَ التَّبْدِيلِ والخِلافِ
ولَيسَ مَنْ قال عَلى اضْطِرارِ كَقَائِلٍ قالَ على اخْتِيارِ
فإن يَكُنْ في ذِي القَريضِ لِينُ فَلَيْسَ عن جَهْلٍ به يَكُونُ (بن شريفة م، 1413هـ/ 1993- 66).

إن هذه الأبيات الشعرية دليل على تغلغل اللغة العربية في أوساط مسيحيي الأندلس، وعلى أن قراءة وفهم اللغة اللاتينية أصبح عسيرا عليهم، مما استوجب منهم ترجمة الوثائق الكنسية إلى العربية.

وأمام هذا المد الجارف للغة العربية، اختفت إلى جانب اللغة اللاتينية اللغة البربرية، منذ القرن 3هـ/9م والتي اقتصر وجودها في الأندلس، على أسماء بعض الأماكن المنسوبة إلى القبائل البربرية التي استوطنتها، مثل منطقة زناتةZaneta ، وتعرف حاليا باسم "Adzaneta de Albaida"، بنواحي بلنسية، وقلعة جزولة " las Gazules"، وغيرهما من الأماكن.

وقد أثار إقبال مسيحيي الأندلس على اللغة والثقافة العربيتين، مخاوف بعض المسيحيين المتعصبين، من أمثال ألبارو القرطبي وإيلوخيو "Eulogio"، زعيم حركة الانتحاريين خلال حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (238- 273هـ/ 852- 886م)، لأنهم كانوا يرون أن عملية الاستعراب تعتبر الطريق المعبد الذي يؤدي إلى الدخول إلى الإسلام، (جاد الرب ع 1424هـ/ 2003م، 256). لذلك نبه ألبارو القرطبي في رسالته المشهورة إلى خطورة هذه الظاهرة، ودعا الشباب المسيحي إلى التمسك بلغته اللاتينية.

كما كان لبعض المؤرخين الأوروبيين المحدثين آراء متعصبة تجاه ظاهرة الاستعراب في الأندلس، إذ ذهب بعضهم إلى الادعاء بأن اللغة العربية فرضت على مسيحيي قرطبة من طرف الأمير هشام الرضا (172- 180هـ/789- 796م)، (Duffourcq Ch. E, 1978, 140) ،وادعى آخرون بأن هذا الأمير منع المسيحيين من استعمال اللغة اللاتينية في الكلام والكتابة (جاد الرب ع، 1424هـ/ 2003م، 254).

لم يجبر هذا الحاكم الأموي المسيحيين على استعمال اللغة العربية في الكنائس والأديرة لأداء طقوسهم الدينية، بل سمح لهم بذلك، أي أن المسيحيين هم الذين طالبوا بذلك، لأن اللاتينية تحولت إلى لغة ميتة، وبذلك يكون هذا الأمير قد ساهم في إنقاذ المسيحية من الاندثار والزوال في الأندلس (مؤنس ح، 1416هـ

/1996م، 61)، إذ لو لم تلجأ الكنيسة الأندلسية إلى استعمال العربية في أداء طقوسها الدينية لاختفت، وربما قبل نهاية حكم الأمويين.

ويتمادى مؤرخون آخرون إلى أبعد من ذلك، حيث ينكرون وجود المستعربين نهائيا، من بينهم انريك بايري Enrique Bayeri (عزوزي ح، 1995 ، 332).

فمثل هؤلاء المؤرخين يهدفون من خلال أفكارهم هذه إلى التقليل من أهمية التأثير العربي الإسلامي في إسبانيا خلال العصور الوسطى.

وعموما، فإن المستعربين ظلوا متواجدين في المدن التي افتكها نصارى الشمال من المسلمين، بحيث بقيت العربية مستعملة في طليطلة، في الأحاديث اليومية والوثائق المختلفة، إلى غاية منتصف القرن 8هـ/14م، (مارغريتا ل غ 1999 281) كما تشير إلى ذلك لوحة على أحد أعمدة قصر نبيل من نبلاء هذه المدينة، سجل عليها باللغة العربية اسم بانيه، وسنة الانتهاء من بنائه 736هـ/1335م .(Molenat J. P, 1991, 100)

ورغم ذلك، يرى بعض المؤرخين اللاتينيين مثل ميكيل دي إيبالزا، أن المستعربين يمكن أن يكونوا قد اختفوا نهائيا خلال القرن 6 هـ/12م، (De Epalza M, 1992,46)، أو قبل ذلك، أي خلال القرن 5هـ/11م، مستندا في ذلك على انعدام الأدلة على وجودهم بعد هذا التاريخ، (دي إيبالزا 1999، 257)، إلا أن المستعربين وإن اختفوا كمجموعات مهيكلة دينيا وإداريا، فإنهم بقوا على شكل أقليات محافظة على لغتها وعاداتها وتقاليدها في المجتمع المسيحي في بعض نواحي بلنسية مثلا، إلى غاية القرن 13هـ/19م (بن عبد الله ع، 1377هـ/ 1957م، 258).

ومن خلال هذا العرض المتواضع، يتبين أن نصارى الأندلس أقبلوا على اللغة العربية بشغف، منذ السنوات الأولى التي تلت الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا، وذلك لشغفهم وانبهارهم وإعجابهم بها، حتى أصبح بعضهم يقول الشعر، وتقدم البعض الآخر منهم في خطط تتطلب تفوقا في اللغة العربية، مما يعطي الانطباع بان استعرابهم كان طوعيا وإراديا غير مفروض عليهم، بل تجب الإشارة هنا إلى أن الإستعراب مكن الكنيسة الأندلسية من الحفاظ على بقائها وتوصلها، كما مكن نصارى الأندلس بصفة عامة من لعب دور حضاري هام تمثل في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى العالم المسيحي، أي أن إستعراب نصارى الأندلس خدم العالم المسيحي دينيا وحضاريا.

المصادر والمراجع المعتمد عليها:

أ) المصادر والمراجع العربية:

1) ابن الأبار: 1985م، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار المعارف.

2) ابن الأثير محمد الشيباني، 1415هـ/1995م، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفدا عبد الله القاضي، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية.

3) جاد الرب ، عبد القادر عثمان محمد، 1424هـ/2003م "المستعربون في عصر ملوك الطوائف بالأندلس 403- 486هـ/1012- 1093م"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، المملكة المغربية، العدد25، صص 249- 274.

4) الحميري، مجمد بن عبد المنعم، 1980، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط2، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة.

5) ابن حيان أبو مروان القرطبي، 1965، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيرون، دار الثقافة

6) ابن حيان: 1979م، المقتبس ، نشره ب. شالميتا، ف. كورنطي، م. صبح، مدريد، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط.

7) الخشني، محمد بن حارث القيرواني الأندلسي، 1981م، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق ابراهيم الأبياري، القاهرة، بيروت، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

8) ابن الخطيب لسان الدين، 1956، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق إ. ليفي بروفنسال، ط2، بيروت، دار المكشوف.

9) ابن خلدون، عبد الرحمن، 1413هـ/1992م، العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1، بيروت،دار الكتب العلمية.

10) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، 1968م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة.

11) دي إيبالزا، ميكيل، 1999م، "المستعربون أقلية مهمة في الأندلس الإسلامية"، ترجمة يعقوب دواني، سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية في الأندلس، ط2،مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، ج1، صص 233.265.

12) بن شريفة، محمد، شوال 1413هـ/أبريل 1993م،"الجذور التاريخية للإستعراب الإسباني"، المغرب في الدراسات الإستشراقية، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، صص63- 73.

13) الطبري محمد بن جرير، 1407هـ/ 1987م، تاريخ الأمم والملوك، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

14) طويل مريم قاسم: 1414هـ/1994م مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر 403- 483هـ/ 1012- 1090م، ط1، بيروت، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، دار الكتب العلمية.

15) بن عبد الله، عبد العزيز، 1377هـ/ 1957م، "العربية لغة العلم والحضارة"، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الخامس، العدد 1و2، صص 255–262.

16) ابن عذاري، أبو العباس المراكشي، 1400هـ/1980م، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط2، بيروت، دار الثقافة.

17) القاضي، محمد، 1422هـ/2001م، "الإستعراب الإسباني والتراث الأندلسي، من خلال ثلاث نماذج: خوان أندريس- غاينغوس- ريبيرا"، مجلة التاريخ العربي، العدد 20، صص 93-109.

18) ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر الإشبيلي، 1402هـ/ 1982م، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وتقديم إبراهيم الأبياري، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

19) مارغريتا لوبيزغوميز، 1999، "المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس"، ترجمة أكرم ذا النون، جمع سلمى الخضراء الجيوسي، الحضارة العربية في الأندلس، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، صص 267- 283.

20) مجهول، 1399هـ/ 1979م، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة.

21) المقري التلمساني ، 1997م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

22) مكي، محمود علي، جويلية 1995م، "قراءة جديدة لوثائق مستعربي طليطلة"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 55، العدد3، صص 1- 28.

23) ابن منظور أبو الفضل الإفريقي، د. ت، لسان العرب، ط1، بيروت، دار صادر.

24) مؤنس حسين، 1405هـ/1985م، فجر الأندلس، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

25) مؤنس حسين، 1416هـ/1996م، موسوعة تاريخ الأندلس، ط1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

ب)المراجع باللغة الأجنبية:

1) Duffourcq, Charles Emmanuel, 1978, La Vie Quotidienne dans l'Europe Médiévale Sous Domination Arabe, 1ere édition, Hachette.

2) De Epalza, Mikel, 1992,« Les mozarabes état de question» – in revue du monde musulman et de la meditérannée, traduction française d'André Bazzana, N 63-64, Aix en Provence, Edisud, France, pp 39-47.

3) Guillou. A, 1953/ 1372, «Trois monnaies Latino Arabes de la collection de Jacques de Morgan » in Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid, numero uno, primero año, pp 59-65.

4) Lévy Provençal, Evariste 1999, Histoire de l'Espagne Musulmane, 2eme édition,Paris ,édition Maisonneuve et Larose,.

5) Molenat, Jean Pierre, 1995, «permanence de l'influence de la civilisation arabo-islamique dans la péninsule ibérique reconquise (XIème siècle) notamment a travers les minorités transculturelles (mozarabes et mudéjares), le cas tolédan et les autres», coordonné par Mohamed Hammam, in l'occident musulman et l'occident chrétien au moyen âge, 1ere édition, Rabat, la faculté des lettres, pp 269-282.

6) Simonet, Francisco Javier, 1967, Historia de los Mozarabes de España, Amsterdam, Oriental Press.